ذكريات وخواطر :

على عتبة الأربعـــين

للأستاذ على الطنطاوى

نزعت رحلى من الركاب ، وطردت من ذهنى همّ السفر ، ونفضت ما علق بذاكرتى من غبار الحاضر ، ثم نفذت إلى ما احتوت من كنوز الماضى ، من معجزات البطولة والنبل ، من تاريخنا الواقع ، الذى لا يصل إليه خيال غيرنا ، ولا يتعلق به وهمهم ، وحاولت أن أكتب للعدد الممتاز من الرسالة فما سرت فى الفصل غير بعيد ، حتى تباطأ قلمى ، ثم تعثر ، ثم وقف ... وأحسست فى نفسى بهذا الضيق الذى ما انفك يلازمنى منذ أكثر من عشر سنين ، فيطفىء وقدة حماستى ، ويعقل نشاطى ، ويغلق أبواب الإلهام دونى ، فلا أكتب ما أكتب إلا لملء الفراغ ، وتزجية الوقت ، كالذى يمشى العشية يجر نفسه جراً ، لا يسوقه مقصد ، ولا تجذبه غاية ...

مال أوسلطان؟ أريد أن يرى الشعب يتلهف تلهف البائس المسكين على فتات ما تجود به عليه فرنسا فى معاهدة يقال له اليوم إنها « معاهدة الشرف والاستقلال » ثم يقال له بعد غد إن هذه المعاهدة نفسها « حماية بالثلث » ؟ أريد أن يرى بعد قليل شباب بلاده وهم يتطاحنون على أسماء رجال لو انكشف الغطاء عنهم لكانوا سواءً فى كيان الشعب لو عقل لسترها كما كان يئد أهل الجاهلية بناتهم خشية الخزى والعار ؟ أم يريد أن يرى هؤلاء الشباب وهم لا يثقون بأحد من رجالهم بعد كشف الغطاء عن فضائحهم ، فيكونون حرباً على بلادهم يطعنون أنفسهم كل طعنة نجلاء بقولهم : « إننا شعب لا يصلح للاستقلال » ؟ أريد هذا الذى لقيته أمم من قبلهم فاوضت وحادثت وعاهدت ، فخرجت من ذلك كله منهوكة بجرحة معذبة تمنهن أشرف شرفها بأخس قول وأرذله ؟ . .

حاشا لله أن يريد حزب الشورى لبلاده مثل هذا . وأنا أعرف الوزانى منذ أكثر من عشرين سنة ، فأنا أسأله بالعهد الوثيق أن يفىء إلى ما فيه مرضاة الله ، وما فيه خير بلاده وخير أمته ، وأن يدع فرنسا بشرّ النظرين ، لا يقربها إلا مقاتلا مجاهداً رافعاً باسم بلاده وحريتها واستقلالها وكرامتها . وما خُلق الإنسان إلا للجهاد فى هذه الحياة حرًّا كريماً ، فإذا سلب الحرية وذيد عن الكرامة ، فعليه أن يجاهد فى سبيلهما جهاداً متطاولا هو وأبناؤه وذراريه لا تداخلهم سآمة ولا ضجر ولا ملل. مستعيناً بالله الذى ينصر المستضعفين فى الأرض وينصر الذين لم يملوا الجهاد فيلجأوا إلى المهادنة أو المفاوضة .

أيها الإخوان الصناديد ! جاهدوا وصابروا ورابطوا ولا تملوا حتى يأتيكم نصر الله ، ولا تعجلوا على ربكم فإن الله لا يمل حتى تملوا ، فإذا مللتم فيومئذ يحيق بكم ما حاق بكل من هادن فى حقوق بلاده .

محمود محمد شاكر

ونظرت فإذا أنا بعد شهرين ، أتم الأربعين ، أربعين سنة قمرية ، درت فيها مع الفلك ، وسايرت الشمس ، واستقبلت السنين ، ثم ودعتها كما استقبلتها ، واستولدت الآمال ، ثم دفنتها كما استولدتها ، ورأيت أفراحاً ورأيت أتراحاً ، وصادقت وعاديت ، وأحسنت وأسأت ، فما الذى خرجت به من ذلك كله ؟

لقد قطعت فى هذه السنين الأربعين أكثر الطريق ، ولكن لم أعرف بعد إلى أين المسير ا ومشيت أكثر من أربعة عشر ألف يوم تباعاً ، ولكن لم أدر إلى أين أمشى !

إننى أصحو كل يوم ، فأكلم أهلى ، وآكل طعامى ، وأذهب إلى عملى ، ثم أعود إلى دارى ، فأكتب مقالتى ، أو أنظر فى كتابى ، أو أزور أصحابى ، أو ألهو بما يلهو به مثلى ، ثم أنام لأصحو من الغد ، فأعيد الفصل ذاته ... والأيام تكر ، والسنون تطوى ، والعمر ينصرم ، وأنا (أمثل الرواية) الأبدية : صحو ومنام ، وشراب وطعام ، وصمت وكلام ، ووداد وخصام . أما أن أعرف نفسى ، وأخلو بها ساعة كل يوم ، وأسأل من هى ، ومن أين جاءت ، وفيم وجدت ، وإلى أين تمضى ، فهذا ما لم أفعله إلى اليوم . بل إنى لأفر منها فراراً ، وأخاف أن أخلو بها ،

فأتشاغل عنها بحديث تافه ، أو كتاب سخيف ، أو لهو باطل ، وإذا أنا ألزمت صحبتها ، وعدمت الشواغل عنها ، ضقت بنفسي ، وضجرت وأحسست كأني سأجنّ !

وأنا أصرف العمر في قطع العمر ، وأجعلي أكبر همي إضاعة يومي ، كأني أعطيت الحياة لأعمل على تبديدها ، فإذا لم أجد ما أمزق به الوقت ، واضطررت إلى مواجهة الزمان ، في ساعة كساعات الانتظار ، ضقت بعمري ، وضجرت ، وأحسست كأني سأجنّ !

إني أركض أبداً وراء المستقبل ، ففي المستقبل أبلغ آمالي ، وفيه أصلح نفسي ، وفيه أنيب إلى ربي ، وفيه أكتب تلك المعاني التي طالما جاشت بها نفسي ، ولم يجر بها قلمي ، وفيه أؤلف الكتب الكبار التي طالما أزمعت تأليفها ، وفيه أصنع كل شيء . ولكن المستقبل لن يأتي أبداً ، وحين يأتي يصير (حاضراً) وأذهب أفتش عن (مستقبل) آخر ، فأنا كالفرس الذي يعدو ويشتد ، ويكد نفسه ليدرك حزمة الحشيش ، والحزمة معلقة في عنقه ، يبصرها أبداً أمامه ، ولا يصل إليها ، فلا يزال يسعى حتى يدركه الكلال ، فيقع ، أو تعترضه حفرة فيسقط فيها ... ولكن الحفرة التي أسقط فيها أنا لا قيام منها ، ولا مناص من ورودها ، ولا يستطيع أن يجتنبها كبير ولا صغير ، ولا غني ولا فقير ، ولا أمير ولا أجير ...

وإذا أنا وصلت إلى الأمل الضخم ، هان عليّ ، وذهب بهاؤه ، وامّحت روعته ، كأن الآمال سراب لا يلمع إلا من بعيد .

لقد كان أكبر أملي يوم كنت في الابتدائية أن أكون معلماً ، وكنت أتوهم حياة المعلم فأجدها جنة أنزلت الأرض ، فيها ما تشتهي الأنفس ... أليس المعلم يأمر فيطاع أمره ، وينهى فيجتنب نهيه ، ويوفى التبجيل ، وينال الإكبار ؟ فلما صرت معلماً ، لم أجد من تلك الجنة إلا الذي تجده من النوطة في الشتاء ، أرضاً موحلة ما فيها إلا الشوك ، وأشجاراً يابسة ، ما فيها إلا الحطب ، ورأيت مدرس الثانوية أعلى قدراً ، وأقل عملا ، وأكبر مرتباً ، وأوسع جاهاً ، فأملت أن أكونه ، وأملت أن أكون كاتباً ، وأن أكون قاضياً ، وأن أكون خطيباً ، وأن أسيح في البلاد ... فلم أجد في الأمل إلا الألم لانتظاره ، ثم الملل من بقائه ، فتيقنت الآن أني لو صرت رئيس الجمهورية ، أو صاحب (الأهرام) ، أو كان لي مال (عبود) ، لذهبت الأيام بلذة ذلك كله ، وهونه الاعتياد ، فلم أستفد منه ، إلا حسد الحساد عليه ، والحسرة ، إن فقد ، افتقده ... وأن متع الدنيا أوهام ، من لم ينلها تشوق إليها وحسد عليها ، ومن نالها ملّها وتمنى غيرها : المتزوج يتمنى العزوبة ، والعزب يشتهي الزواج ، والمقيم يرجو السفر ، والمسافر يطلب المعاد ، والريفي يحن إلى المدينة ، والمدني يتشهى الريف ، ونحن كلنا أطفال ... تشترى للطفل اللعبة النفيسة فيفرح بها ، ويهش لها ، ثم يلقيها ويطلب غيرها ، ولو كان دونها . ثم إن الآمال لا تنتهي ... فمن أعطى المليون ابتغى المليونين ، ومن رفع في الوظيفة درجة طلب درجتين ، فلا يزال في شقاءين ، شقاء بالحاضر الذي لا يقنع به ، وبالآتي الذي لا يصل إليه . . .

أفلهذا وجدت وسميت أربعين سنة ؟ أسميت لأدرك السراب ؟

وتثاقل عليّ الفكر ، وعاودني الضيق الذي طالما كاد يدفعني (لولا خوف الله) إلى طلب الموت من سنين ، وما أشكو المرض فصحتي جيدة ، ولا أشكو الفقر فما أجد من المال يكفيني ، وإنما أشكو فراغاً في النفس لا أعرف مأتاه ، وقوى فيّ لا أجد لها مصرفا ، وحنيناً إلى شيء غامض لا أدري ما هو على التحقيق ...

* * *

وتركت القلم والورق ، وقمت أدور في الغرفة فوجدت على نضد إبريقاً من البلور الصافي ، طويل العنق ، واسع البطن ، فيه نحلة قد دخلت ولم تستطع الخروج ، فهي تتحفز وتتجمع ، وتثب مقدمة بقوة وبأس ، فيضرب الزجاج رأسها ويردها ، فتعاود الكرة ، وهي لا تبصر الجدار ، وإنما تبصر ما وراءه فتحسب أنه ليس بينها وبين الفضاء حجاب ، فجعلت أنظر إليها وهي تعمل دائبة ، كلما ضربت مرة عادت تحاول أخرى ، لا تقف ولا تستريح ، حتى عددت عليها أكثر من أربعين مرة ، تجد الصدمة كل مرة فلا تعتبر ولا تدرك الحقيقة ، ولا ترفع رأسها لتبصر الطريق ، وتعلم أن سبيل الفضاء ، وباب الحرية ، هو من (فوق) لا عن يمين ولا عن شمال . . .

فتمثلت من هذه النحلة ما كان خافياً عني : تمثلت أننا مثل هذه النحلة نحسب أن الانطلاق إنما يكون على الأرض فنتقدم ، فتضرب العوائق وجوهنا وتردنا ، فنقعد يائسين ، أو

تعاود الكرة مستميتين ، تحسب الانطلاق في الشهرة أو في المال ، أو في متع الجمال ، وهيهات . . وهاهم أولاء السياسيون والممثلون والمغنون ، تطبق الأرض بأخبارهم ، ويشتغل الناس بأخبارهم ، ويرون صورهم ، ويسمعون أصواتهم ، فما الذي يحصل من ذلك في أيديهم ، وماذا ينفعك أن يكون الناس كلهم يمدحونك إذا كنت منفرداً في غرفتك مبتئساً ، تعس النفس ، محزون القلب ؟ وها هم أولاء الشباب الأغنياء ، يؤمون كل ملهى ، ويستمتعون كل يوم بجمال جديد ، فهل ذهب ظمأ قلوبهم إلى ارتياد منابع الجمال ؟ هل شبعت شهواتهم ؟ أم أن ذلك كالماء الملح كلما شربته جدّد لك ظمأ ؟

وها هم أولاء المحبون المدنفون ، يعانقون من يحبون ، والنفس لا تزال بعد مشوقة ليس يرويها عناق ولا اقتراب ، ولا يشبعها شيء من متع الجسد .

وها هم أولاء (الملايرة[1]) المؤلفون ، هل أشبعت ملايينهم نفوسهم ، ورزقتهم القناعة والاطمئنان ؟

فما هذا طريق السعادة ، إن الطريق على الأرض مسدود ، والفضاء من حولك له حدود ، وما طريق الفضاء ، وسبيل الانطلاق إلا من (فوق) ، هناك عالم النفس تنشط النفس كلما برقت لها منه بارقة ، أو لاح علم : كلما سمعت نغمة سحرية فيها رنّة من ذلك العالم ، أو قرأت قصة عبقرية فيها إشارة إلى ذلك المجهول ، أو وعت موعظة علوية فيها قطرة من ذلك الينبوع .

الآن عرفت ، فيا ضيعة هذه السنين الأربعين !

***

لا تقولوا ، إنك تكتب في الدين وفي الفضيلة ، وإنك تدعو إلى الخير ، لأني عزمت على أن أقول الليلة الحق ، ولو كان على نفسي .

الحق يا سادة ، أن الدعاة اليوم إلى الله ، لا أستثني واحداً ممن أعرف منهم ، كلهم ممثلون ، يلبسون في الحجرة أو على المنبر ثياب المسرح ، فيبدون بالجبة والعمامة ، فإذا انقضى (الفصل) خلعوها ، وعادوا إلى بيوتهم ، فمكفف عابد الدينار منهم على معبوده ، ماله إلا جمع المال همّ ، وعابد الشهوة عليها ، وعابد الجاه ، وعابد المنصب . تعددت الأصنام والشرك واحد !

(١) جمع مليونير

إنهم ممثلون وأنا أول الممثلين .

ولو كنت صادقاً لما ألفت في سيرة أبي بكر وعمر ، ثم عدلت عن سنتهما ، وسرت غير سيرتهما ، ولو كنت صادقاً إذ أدعو إلى الإسلام ، لكنت في سري وجهري وفي لساني ويدي ، واقفاً عند أمر الإسلام ونهيه ، ولو كنت صادقاً لما انغمست في حمأة هذه الحياة التي سال علينا سيلها من الغرب ، ولو كنت ، وكان عشرة مثلي ، صادقين ، لما بقي في الأرض فساد . ولقد طهر الأرض من أوضارها منبر واحد من الخشب ، ثلاث درجات ليس لها درابزين ، ولا عليها قبة ، ولا لها باب ، فلم لا تطهر الأرض مائة ألف منبر مزخرفة منقوشة محلاة لها أبواب جميلة وقباب ؟

أ لأن الناس فسدت طباعهم ؟ أ لأن الزمان قد دنا آخره ؟

لا . بل لأن القائمين عليها وعاظ من خشب ، يحملون سيوفاً من خشب !

***

أما إن الحق ، الذي لا بد الليلة من الصدع به — إنه — لا هذه المواعظ ، ولا هذه المقالات ، هي التي توصل إلى الله ، ولكن يوصل إليه ، أن يعود كل إلى نفسه ، فيسأل ، من أين جاءت ، وفيم خلقت ، وإلى أين المصير ؟

وأن يعلم كل أن الطريق من (فوق) ، فيرفع رأسه ليرى الطريق . ومن منا يرفع اليوم رأسه ، ونحن كالنحلة لا تمشي إلا على الأرض ؟ بل إن منا من هو كالفراشة ، تسعى إلى النار ، يحسبها هي باب الانطلاق !

إن المسيحيين يصلون لربهم قبل الطعام على المائدة ، وقبل الدرس في المدرسة ، ويوم الأحد في الكنيسة ، فتعلم أنهم مسيحيون ، فما يصنع كثير من المسلمين ، وأي علامة تدل على أنهم مسلمون ، من ساعة يصبحون إلى ساعة يمسون !

لا صلاة ، ولا ذكر ، ولا تمييز لحلال من حرام ، إن عملوا فضيلة فباسم الأخلاق والفضيلة والصحة ، لا باسم الإسلام .

فما الفرق بينهم وبين غيرهم ؟

يقولون إن الدين المعاملة والصدق والقصد والاعتدال ، وأن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك .